على خُطى محمد صادق حديد

زينة شهلا

زرتُ مدينة سلمية السورية وريفها، وتحديداً قرية برّي الشرقي، لأول مرة في شهر أيار/ مايو من عام 2023. عليّ أن أعترف بأنني لم أكن أعرف عنها وعن ثقافتها الكثير، سوى "رؤوس أقلام" وبعض الصور النمطية التي يتشبّع بها على الأغلب من ينتمي إلى خارج المنطقة ولم يزرها من قبل، كما لم أكن أتوقع الرحلة الغنية التي تنتظرني، والتي ستمتد لأشهر طويلة.

إلى الشرق من مدينة سلمية، وعلى بعد 15 كيلومتراً منها على الطريق الذي يصل إلى البادية السورية، تقع برّي الشرقي. قطعتُ الطريق في طقس ربيعي منعش، وعلى جانبيه تمتد حقول قمح صفراء تصل حتى الأفق، وفي وسط حقول أخرى رعاة مع أغنامهم يشكّلون جزءاً أساسياً من المشهد الذي يبدو من بعيد مثل لوحة مكتملة الأركان والألوان، وحتى الأصوات.

قوس حديدي كبير مهترئ يعلن الوصول. "بري الشرقي ترحب بكم"، كُتب عليه بخط كبير. لا تختلف عن أي قرية سورية أخرى. بيوت صغيرة بسيطة، محال متنوعة، العشرات يهرعون إلى أشغالهم في الصباح، وهدوء مريح يلف المكان. في بداية طريقها الرئيسي، كما علمتُ مسبقاً، يقع منزل محمد صادق حديد، "الأسطورة"، الذي شكّل ومن قبله والده صادق حديد، هوية الغناء الشعبي في المنطقة برمتها، وسيشكّل أيضاً بما تركه من إرث فريد، مساراً لي ولرحلتي، لاكتشاف تاريخ وحكايات الغناء والموسيقى الفلكلورية في المنطقة، والتي يُطلق عليها السكان "الموسيقى السلمونية".

برّي... الأسطورة الصغيرة

لا تشي أبواب منازل القرية التي يزيد عدد سكانها قليلاً عن عشرة آلاف نسمة، بما يمكن أن نكتشفه داخلها. المنزل الأول الذي دخلته كان عبارة عن بيت وورشة لصناعة آلتي الربابة والمجوز للفنان ناقد رحمة، والذي أخذ الحرفة والموهبة مذ كان عمره عشر سنوات من خاله، وهو عازف ومطرب شعبي وصانع آلات تقليدي من عائلة مغربية الشهيرة بهذا النمط. الرجل الأربعيني وهو من القلائل الذين ما زالوا يتقنون الصناعة التقليدية للآلات المحلية، هو عازف ومغنٍ معروف أيضاً على مستوى المنطقة.

بين أدوات قديمة، ومواد أولية هي عبارة عن خشب وجلد ماعز وقصب وشَعر مأخوذ من ذيول الخيول الأصيلة، شرح لي رحمة بسخاء كيف يصنع هاتين الآلتين المحببتين إلى قلبه. كانت لافتة لي مهارته وخفته في العمل، ومحبته لكل تفصيل فيه لأنه يعلم بأن الآلة ستحمل شيئاً من روحه، أما كرم التعليم والشرح فهو سمة عامة لكل "السلامنة"، يحبّون ما لديهم من علم وثقافة ويقدمونه للآخرين دون حساب، ولا يباري هذا الكرم سوى حسن ضيافتهم.

كانت هذه الزيارة مجرد بداية علاقتي مع البلدة التي بدأ العمران فيها منتصف القرن التاسع عشر، ووفدت العديد من العائلات الإسماعيلية لتسكن فيها مستفيدة من خصوبة أرضها، فشكّلت جزءاً أساسياً من هويتها وثقافتها، والجزء الآخر جاء نتيجة الاحتكاك بمنطقة البادية غير البعيدة.

ومع بداية القرن العشرين بدأت برّي الشرقي تتحول إلى "منبع للفلكلور السلموني"، إذ تأسست فيها ما يمكن أن نسميه "مدرسة خاصة" على يد فنانين أبرزهم المغني وعازف الربابة صادق حديد الذي نقل، وابنه صادق من بعده، الربابة إلى مستوى جديد من رهافة وإتقان العزف ومرافقة الغناء خاصة بأنماط العتابا والموليا، وحتى اللهجة التي بات البعض يطلقون عليها "لهجة آل حديد"، وقد اعتمد هؤلاء الفنانين على شعراء على رأسهم علي زينو الذي يسميه البعض "أبو العتابا"، إذ دمج بذكاء وحساسية اللهجات البدوية مع الصبغة السلمونية ليخرج منها خليط مميز للغاية نجد فيه صوراً شعرية ساحرة ومعقدة لغوياً في الوقت ذاته.

الشعر والعزف لم يكونا منفصلين على الإطلاق في هذا الفن، فالربابة تتحول إلى آلة ناطقة والكلمة بقدرتها التعبيرية الهائلة تتحول إلى علامة موسيقية في اندماج غريب، وحتى المغني كان يقال عنه أحياناً بأنه "شاعر على الربابة"، فهو ليس مؤدياً فقط وإنما لديه فهم وإحساس عميق لكل كلمة ومعانيها، وليس بالغريب أن يرتجل أبياتاً من العتابا حسب المزاج، رغم صعوبة الأمر نظراً لأن كلمات هذه الأبيات والصور والتشبيهات فيها ليست سهلة أو يمكن أن تخرج بعفوية وسرعة، على عكس أنماط موسيقية أخرى. معظم هذه الأبيات قد نجده حزيناً خاصة عندما يترافق مع عزف الربابة، ما يناقض نوعاً ما روح المرح والفكاهة التي لمستها لدى الناس.

هذا النمط المميز والخليط المدني البدوي لا يقتصر على بري الشرقي، فهو ذاته في كل منطقة سلمية، من الشرق انطلاقاً من جبل البلعاس حتى الغرب وصولاً إلى بلدات تلدرة والكافات. لكن ما يجمعه على الأغلب ارتباطه بشكل أساسي بعائلة "حديد"، الاسم الذي كان صداه يتردد في كل مكان تطؤه قدماي وكل منزل أو محل أدخله.

كثيرون أكدوا بأن أي جلسة شعبية لا تحلو دون الاستماع لعتابات "بو صادق" سواء من خلال تسجيلات قديمة أو مغنين ما زالوا قادرين على إحياء هذه النمط وأدائه، وفي بيوت كثيرة دخلتها كان الناس يعتزّون بأنهم يمتلكون شريطاً أو أكثر له من حفلة "نادرة"، والجميع يتحدث عن موهبته الاستثنائية وقدرته على الغناء لساعات متواصلة دون توقف وإطراب المستمعين، "وكأنه يحمل العتابات في جيب سرّي يخرجها الواحدة تلو الأخرى". استمعت لعدد من تلك التسجيلات القديمة، وتخيلت نفسي أحياناً أجلس مع الحضور في غرفة صغيرة، وأمامنا الفنان بعقاله الأبيض المميز على رأسه، وبين بيت العتابا والآخر ومع رنات الربابة الحزينة، نهتف بحياة بو صادق، وكأن الكون كله يمكن أن يختزل في هذه البقعة الصغيرة، واللحظة النادرة من السكون والراحة.

آخرون رووا لي حكايات شعرت بأنها بمثابة "الأساطير"، مثل الحفلات التي كان حديد يحييها في دمشق وريفها وكان جمهور المستمعين يغلق الطرقات المؤدية إلى مكان الحفل ويحملونه على الأكتاف، ومنها عن دماثته وتواضعه وقربه من الجميع، حتى أن البعض خارج حدود سلمية ما كانوا يصدقون بأن بو صادق شخص عادي يعيش جزءاً من حياته في قريته ويمكن لأي كان أن يلقي عليه التحية ويجلس يتصور معه. الحكاية التي يمكن أن نسمعها أيضاً من أكثر من مصدر هي أنه لم يكن يحمل معه ربابة خاصة به كي لا يحرجه الناس لأن يعزف ويغني لهم أينما صادفوه، وكثيرون أكدوا لي بأنهم يملكون ربابة من تلك التي كان يعزف عليها. أفكر بأن حالة الفخر هذه، ساحرة للغاية.

من حسن الحظ أن إرث بو صادق، الذي توفي قبل نحو سبعة عشر عاماً، مستمر حتى اليوم على أيدي عديدين، ومنهم ابن أخيه مرهف حديد، الذي يسير منذ سنوات على خُطى عمه، ويؤدي مجموعة واسعة من عتاباته وأغنياته بإتقان كبير مع العزف على الربابة، ويحمل حتى من ملامحه المميزة الكثير. يعتّز مرهف

كما حكى لي بهذا الفن السلموني العريق والمميز، ويقدّس العتابا بشكل خاص، ويعتبر بأنها "نمط لا يجوز التحريف أو التلاعب به، فكل حرف وكل نَفَس فيها له مكانه وطريقته، والأمر ليس مجرد حفظ لبعض الكلمات والألحان وأدائها دون معرفة تامة بمعنى كل كلمة ومكان كل وقفة وعلامة موسيقية".

ما كان من الممكن أن تكتمل الرحلة دون أن ألتقي بوجه آخر من وجوه الغناء الشعبي في برّي الشرقي، لا يقل أهمية عن عائلة حديد، وهم عائلة مغربية. البعض يلقبون كبير العائلة أبو خضر مغربية بـ"سيد العتابا"، وهو من الأصوات الجميلة والقوية التي تميزت في المنطقة بذات الفترة، ورحل منذ أعوام تاركاً جيلاً آخر من الفنانين الشعبيين، وهم ابنيه المغني حسين وعازف الربابة أمين.

عبر مقاطع قليلة بدقة منخفضة على يوتيوب، حفظت صوت بو خضر وعدداً من أبيات العتابا الخاصة به، وعندما جلست مع كل من حسين وأمين في منزلهم، تخيّلت نفسي لوهلة وكأني في ذلك المحل الصغير الذي يظهر فيه والدهما بمقطع فيديو مدته عشر دقائق وهو يغني بكل عفوية وسلاسة بيت عتابا تلو الآخر. يمتلك حسين صوتاً مشابهاً جداً لأبيه، ويغني بنفس القوة والإتقان، وربما الأجمل هو مرافقة أخيه على الربابة بعزف متقن وحساس للغاية. كل مرة قابلتهما فيها، وجلسنا مع عازفين آخرين، كنت أفكر بأن الغناء والعزف على الربابة بالنسبة لأهالي برّي الشرقي هما كأي فعل يومي، سهل ومريح وعفوي، و"على السليقة"، يمكن لك أن تصادفهم في أي مكان وأي وقت، لتنطلق منهم العتابات وكأنها مجرد حديث عادي لا يتطلب جهداً أو تفكيراً.

سلمية... "بلد الفكر والفقر"

امتدت خطواتي وأنا ألاحق اسم محمد صادق حديد وصولاً إلى مدينة سلمية، التي تتميز بموقعها بين حماه مركز المحافظة وبين الصحراء، فتبدو وكأنها مزيج ساحر بين خصائص المدينة والبادية، أو بوابة لكل منهما على الأخرى. في هذه المدينة التي يقطنها اليوم أكثر من مئة وعشرين ألف شخص، يمكن أن نجد بين المغني والآخر، موسيقياً أو شاعراً أو كاتباً. يقول عنها أهلها "بلد الفكر... والفقر"، فهم عموماً لا يعتمدون في معيشتهم إلا على وظائف ومهن بسيطة لا تدرّ الكثير من المال، لكنهم يفخرون بغنى ثقافتهم وتراثهم وحفاظهم عليه، وبارتفاع نسبة التعليم والانعدام شبه التام للأمية بينهم، ويتميزون كما عموم أهالي المنطقة بخفة دم وروح نكتة واضحة وحاضرة في كل لحظة.

مع دخول المدينة من جهة الغرب تاركة ورائي ظلال قلعة شميميس، لم يكن من الصعب أن أعثر على منزل أيمن كحيل، وهو اليوم من أشهر المغنين الشعبيين في سلمية. الرجل الذي كان يمتلك عمله الخاص، اعتاد ملازمة بو صادق في كثير من حفلاته قبل عقود، وتأثر به كثيراً، وبعد وفاة الأخير بقيت كلماته ترن في أذنيْ كحيل: "لازم تعزف ربابة، العتابا أمانة برقبتك"، وحينها قرر شراء ربابة وتعلّم العزف عليها مستفيداً مما اختزنه في ذاكرته ومقاطع الحفلات المتوافرة لأبو صادق، وكذلك من امتلاكه صوتاً رخيماً وموهبة واضحة. يعتز الفنان اليوم باللون الذي يؤديه، وغنائه للعتابا والموليا السلمونية إلى جانب أغنيات أخرى خاصة بالمدينة، ويهتم بتفاصيل هذا الفن من ألفاظ ومخارج حروف واللهجة التي تميزه، ويقول بأن "عتابتنا فن وكلام وصوت وأداء، ومولیتنا صعبة تحتاج إلى تأنٍ وهدوء وإتقان تام للهجة".

ورغم أن عزف الربابة ليس شائعاً اليوم على نطاق واسع في سلمية، لكن تصنيعها ليس بالأمر النادر، ولم يكن من الصعب أن ألتقي بعدد ممن يعملون في هذا المجال، وعلى رأسهم الفنان نزيه عيسي، وهو صانع آلات موسيقية وعازف من الطراز الرفيع، ضمن ورشته الكبيرة وسط المدينة.

بدأ عيسي الملقب بـ"أبو الطيب" هذا العمل منذ عقود طويلة، حين كانت الربابات تصنع "على أصولها" من جلد الماعز الذي يطمر تحت التراب لأيام كي يجف وتُزال منه القطع الزائدة ثم يشد على جسم الآلة، وصولاً للتطوير الذي أدخله بنفسه ليصنع ربابة بجسم يشبه آلة الكمان وصوت مميز، أما الأعواد، فهو اليوم من أبرز مصنّعيها في المنطقة وعلى مستوى سوريا، وقد ابتكر أيضاً عوداً بوجه مصنوع من الجلد. يمتلك عيسي أيضاً موهبة استثنائية بالعزف سواء كنا نتحدث عن النمط الشعبي السلموني على الربابة أو الطربي على العود، إلى جانب معرفة موسيقية واسعة وتجارب بكتابة الشعر والتلحين. وليس بالغريب أن يطلق عليه شباب وشابات المدينة لقب "المعلّم" وأن يكون اسمه حاضراً بينهم على الدوام، فهو رافق خطوات كثيرين منهم بمجال الموسيقى والعزف والغناء.

ما بين حماه وسلمية... "موسوعة" تل الدرة

لا ضير من ألا تنتهي جولتي تماماً في مدينة سلمية، ومن الاتجاه قليلاً نحو "مغرّب"، والتوقف في منتصف الطريق بين سلمية وحماه. المنطقة التي تقع فيها بلدة تل الدرة والقرى المجاورة، وما حولها من حقول شاسعة مزروعة بالقمح والشعير والزيتون وغيرها من الأشجار، أوحت لي زيارة تلو الأخرى، بأنني قادرة على أن أمضي فيها ساعات وأياماً، مستمتعة بالسكينة والطبيعة التي يسير كل ما فيها بهدوء وترو وبطء، عكس الصخب الذي لا يبعد عنها سوى كيلومترات قليلة.

هذه المتعة النادرة اليوم لم تكن هي فقط ما قاد خطاي نحو تل الدرة، أو كما يطلق عليها أهلها "تلدرة"، وقد سميت هكذا بسبب البدء بزراعة الذرة في جهتها الشمالية منتصف القرن التاسع عشر، إذ كان لا بد من لقاء واحد من أهم شخصياتها، وهو الباحث التاريخي والموسيقي غسان قدور.

في بيت واسع مليء بتفاصيل من روح المكان والمنطقة، جلست لقرابة أربع ساعات مع "موسوعة الموسيقى السلمونية"، وبكل سلاسة وهدوء كان قادراً على أن يشرح لي خلاصة فهمه وتعمقه لسنوات طويلة في تفاصيل الفلكلور السلموني سواء من حيث التطور أو الكلمات أو الألحان والأنماط المختلفة، وأسماء أهم من حملوا وما زالوا يحملون هذا الإرث. وفهمت معه أكثر تاريخ المنطقة، وكيف اندمج فلكلور الإسماعيليين الذين وفدوا إليها منتصف القرن التاسع عشر مع الواقع البدوي في المحيط من عادات وتقاليد، فحافظوا على لهجتهم السلمونية وفي الوقت ذاته صارت لديهم القدرة على فهم وتشرب لغة البدو.

شرح لي الباحث أيضاً عن "السهرات السلمونية"، سواء الأعراس أو الليالي الشعبية التي تقام في المضافات التي يطلق عليها محلياً اسم "المنزول". في هذه المناسبات كان الشعراء يتبارون بالأغاني، وفيها تُسمع العتابا والنايل والسويحلي وغيرها من أنماط الغناء الرتيب الطويل بمرافقة الربابة، والموليات المختلفة مثل موليا الفروقات أو المحاورة أو الزمر، وجميعها أنماط خاصة بمنطقة سلمية ولكل منها لهجة متفردة وتغنى عموماً على مقامات الصبا والبيات والسيغا، ومن ثم يمكن "تحريك الجو" بالدبكات أو العزف على "الزمر". وبالطبع، تحدثنا عن محمد صادق حديد وربابته وأنامله التي تبدو حين يعزف وكأنها بحوار مباشر مع صوته، وبلدة بري الشرقي منبع شعراء العتابا والفلكلور السلموني.

منذ عقود، عمل غسان قدور وهو أستاذ لمادة التاريخ، على أرشفة كل ما يتعلق بموسيقى المنطقة بشكل منظم للغاية، ويأمل أن يتمكن قريباً من نشر هذا الأرشيف للناس. كما بدأ مؤخراً، وهو يخطو في عامه الثمانين بكل

قوة، بتشكيل فرقة موسيقية لإحياء وحفظ تراث سلمية، مع موسيقيين من المنطقة ومنهم عازف العود جهاد شتيان وعازف الإيقاع علي جمول.

إرث في وجه الاندثار

من اللقاءات التي لن تُمحى من ذاكرتي، جلسة قصيرة مع الفنان وليد زينو في مدينة سلمية، وهو حفيد الشاعر علي زينو، وابن الفنان الشعبي وعازف الناي والمجوز أحمد زينو. حدثني فيها عن تجربته الغنية بمجال الغناء والعزف على العود والناي، وهو الذي كان يُعتبر من أهم المغنين في المنطقة وعموم سوريا، وعن مرافقته لمحمد صادق حديد في عدة حفلات أحياها في دمشق. ولعلّ من الأغاني التي عرفه كثيرون من خلالها "هبّت هبوب الشمال" وقد أدّاها في مسرحية شقائق النعمان من كتابة الراحل محمد الماغوط وبطولة دريد لحام.

كما أسرّ لي ببعض من خيبة الأمل التي دفعته نوعاً ما لاعتزال المجال الفني في السنوات الأخيرة، "فاليوم لم يعد هناك دور كبير للمغني وصوته والكلمات والصور الشعرية وإنما للعزف الذي لا نكهة له خاصة على الأورغ، والغناء دون معرفة تامة باللفظ واللحن وكل التفاصيل المرتبطة بالأمر"، وجزء كبير من المشهد الفني أصبح كما يقال "هات إيدك والحقني"، وبالنسبة إليه "إذا ما أنا طربت نفسي ما فيي أطرب الآخرين"، ما يعني تمسّكه حتى اللحظة الأخيرة بالفلكلور المتوارث، وما تركه الفنانون الكبار مثل بو صادق وغيرهم.

أقول "حتى اللحظة الأخيرة"، لأن المنية وافت وليد زينو بعد لقائي به بأسابيع قليلة. أحزنني الخبر كثيراً، وفي الوقت ذاته أشعرني بأهمية أي جهد يمكن أن نبذله لتوثيق هذا الإرث المهم، والأشخاص العظماء الذين يحملونه ويستمرون بالحفاظ عليه. لم ألتقِ بأحد إلا وحدّثني، إلى جانب شغفه بالموسيقى والتراث السلموني، عن حرصه على أن يطوّر من هذا التراث بطريقته، وفي الوقت ذاته أن يعلّمه لشباب وشابات المنطقة ويشجعهم على استمرار تناقله وممارسته، بأي وسيلة متاحة، رغم تراجع المساحة والاهتمام بالأمر على مختلف الأصعدة، ما يجعله بنظر البعض "في دائرة الخطر" خوفاً من الاندثار والنسيان، ما لم يتم توثيقه وتناقله وحفظه.

الصورة ليست قاتمة تماماً، ففي سلمية وبرّي الشرقي التقيت بكثير من الشبان والشابات الذين ما زالوا في بداية مسيرتهم الفنية، ويشغل التراث حيّزاً مهماً منها. نايف مرّة الذي يحب بشكل خاص النمط العراقي في الغناء ويؤدي في الوقت ذاته فلكلور المنطقة بكل إتقان، وفريحة خبازة التي أسست "فرقة سلمية لإحياء التراث" ولديها إصرار كبير ولافت على تعليم تراث سلمية وإرث محمد صادق حديد وغيره لجيلٍ جديد لا بد من التعويل عليه للاحتفاظ ببعض من الأمل.

ما بين بداية الرحلة ونهايتها، تغير فيّ الكثير وتعلمت الكثير. يمازحني البعض من أصدقائي بأنه بات عليّ أن أحصل على "الجنسية السلمونية". الرحلة لم تقتصر بالنسبة لي على هذه المعرفة الفريدة بثقافة وموسيقى المنطقة من خلال أهلها وممارسيها، وإنما اكتشاف تاريخ وغنىً وكرمٍ وطيبة وحميمية بات من النادر أن نعثر عليها في أي بقعة أخرى. الرحلة ومتعة الاكتشاف والتعلّم لم تنتهِ بالنسبة إليّ بعد.